تراثنا المخطوط.. القضية والحل

يسرى عبد الغنى

مازال تراثنا العربى والإسلامى المخطوط ، قضية قابلة للطرح والمناقشة فى كل وقت ، . فهى قضية قديمة لكنها لا تموت بالتقادم . . وهى جديدة لأنها تتجدد مع طرح أية قضية حضارية أو فكرية معاصرة .

وأذا كان الأجداد قد ذهبوا فإنهم قد خلفوا من ورائهم ما يجعل ذكراهم عطراً فواحة لكل الأزمنة والأمكنة . فقد حفظ لنا أولئك الصفوة من العلماء والأدباء والفلاسفة والنابهين من خلال هذه المخطوطات روائع نتاج العقل العربى الإسلامى فى عصور كان فيها الظلام يسكن أوربا وغيرها من الدول التى تتصدر واجهة المدنية الحديثه فى عالم اليوم .

وإيماننا بطرح هذه القضية يجب أن يعبر عنه فى كل مناسبة ليس من باب التباكى على أطلال الماضى ، والشعور بالفخر ، والتباهى من منطلقات مركبات نقص ، نعيشها أمام تيارات المدنية الحديثة أو معطياتها الكبيرة ، يقابله عجزنا فى المشاركة فى هذه المعطيات كما يردد كثير ممن بهرتهم معطيات العصر فأعمتهم عن حقيقة وأصل هذه المعطيات ○○

إن تراثنا المخطوط يختزن مساهماتنا العلمية والفكرية والفلسفية والفنية ، التى قادت العقل البشرى إلى هذه المخترعات الحديثة فكيف لا نحرص كل حين على إثارة هذه القضية ليس لمجرد الفذلكة أو الإثارة ولكن من أجل دعوة صادقة إلى إحياء هذه الثروة للإستفادة منها من ناحية ولإعطاء هذا الجيل المبهور بالمدنية الغربية فرصة المراجعة وتصحيح كثير من المعلومات التى زودته بها البعثات إلى الخارج أو الرحلات والهجرات ووسائل الأعلام من ناحية أخرى .

إذن فنحن مطالبين وعلى وجه السرعة أن نسند القضية برمتها لمن قضوا شطراً من عمرهم ومازالوا فى الاهتمام بتراثنا المخطوط دراسة وبحثاً وتنقيباً وتحقيقاً وتجميعاً وليس لأهل الزعم والادعاء . وما علينا أن نسعى جادين وجاهدين لعقد مؤتمر علمى عاجل على مستوى عالمنا العربى والإسلامى لمناقشة الدراسات والآراء التى تطل فى ساحتنا وساحة الفكر العربى « المتفرنج » وعلاقة هذه الدراسات بتراثنا المخطوط ومدى الاستفادة التى يمكن أن تجنيها الدراسات المعاصرة من هذا التراث .

الينبوع الأول

إن المخطوطات العربية هى الينبوع الأول لمعرفة الثقافة الإسلامية والعربية بمختلف ميادينها وهى المرآة التى تعكس صورة الحضارة بأحلى مظاهرها فلا يمكن معرفة هذه الثقافة حق المعرفة ، ولا إبراز الصورة الواضحة لتلك الحضارة إذا لم نرجع إلى هذا التراث العربى القديم المخطوط . إن عدم رجوعنا إلى هذا التراث جعل جُل الدراسات الحديثة عن لغتنا وثقافتنا وتاريخنا ناقصة يشوبها السطحية والتشويش الفكرى والسبب أن مؤلفيها لم يرجعوا إلى الينبوع الأول كى يعبوا منه فلم يأتوا بجديد ، بل نقل بعضهم عن بعض وعلينا ألا نتجاهل القول بأن الكثير من جوانب حضارتنا لاتزال مجهولة أو مجهلة ، لم يلق عليها النور . ولا سبيل إلى اتمام هذه الدراسات أو جلاء الكثير من الحقائق الحضارية الإسلامية إلا بالعودة إلى المخطوطات فى أماكنها والنهل منها قبل أى شىء آخر . والعالم الحق هو الذى يعرف المخطوطات وأماكنها ويرجع فى أبحاثه إليها .



ويزعم البعض أن كثيراً من المخطوطات قد طبع ، والباحثون يرجعون إليه افلا يكفى وحسب ؟! نقول : إن ما طبع من التراث العربى الموجود فى العالم ضئيل جداً . إن آخر إحصائية تقريبية نشرها معهد المخطوطات العربية فى الكويت تقول إن عدد المخطوطات العربية فى العالم اليوم تقدر بأكثر من ثلاثة ملايين مخطوط وما طبع منها حتى الآن لا يتجاوز نصف مليون !!؛ فلنتصور معاً كم يمكن أن تمدنا هذه الملايين من المخطوطات بمعارف جديدة نحتاج إليها .

وقد يسأل القارىء أين توجد كنوزنا ؟ وأين مراكز تجمع هذه الملايين من المخطوطات ؟ توجد المخطوطات العربية فى كل بلد عربى وإسلامى تقريباً من محيطنا الأطلسى إلى الهند فنحن نجدها فى مالى الإفريقية وموريتانيا الإسلامية والمملكة المغربية والجمهورية الجزائرية والجماهيرية الليبية وتونس والسودان والصومال وجيبوتى كما نجدها فى اليمنين والخليج (حضرموت ، عمان ، قطر ، الكويت) والعربية السعودية وفلسطين المحتلة ، وسورية ولبنان وتركيا وإيران الإسلامية وأفغانستان المسلمة وباكستان وبنجلاديش والهند ولا يكاد بلد أوربى تخلو منها كأسبانيا وفرنسا وألبانيا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ويوغسلافيا وهولندا وإنجلترا وبلغاريا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتى وسويسرا وأيرلندا . . . كما أن فى الولايات المتحدة الأمريكية مجموعات كبيرة منها . وتختلف هذه المجموعات فى قيمتها وعددها وقد قرأت وسمعت عن هذه الأماكن وكان لى شرف لقاء علماء أجلاء أطلعوا على هذه المجموعات ويقولون إن أعظم مراكز المخطوطات كالتالى : فى الشرق : تركيا ـ فى أوربا : ألمانيا ـ فى الولايات المتحدة : جامعة برنستون الأمريكية أمام هذا التوزع والشتات لا توجد ـ للأسف ـ أية عناية بهذه المخطوطات على أى مستوى شعبى أو رسمى ومن المؤلم حقاً أز كثيراً من المخطوطات الإسلامية والعربية الموجودة فى العالمين : الإسلامى والعربى مازال ينقصها ما يجب نحوها من العناية والحفظ والفهرسة والتصنيف بصورة علمية حديثة تساعد على حفظها والاستفادة منها.إن عدداً كبيراً منها لم يُفهرس إلى الآن ، ونتج عن ذلك الإهمال الجسيم لهذا الكنز فى بعض البلدان تلفها أو ضياعها ، فمازلنا لا نملك الوعى الكافى ولا نقدر قيمة المخطوط

حق قدره ولا نعطيه ما يستحق من الاهتمام والاحترام والعناية ، وكثير منا حتى ولاة أمورنا ، يرون فى المخطوط أوراقاً صفراء بالية لا وزن لها ، يضاف إلى ذلك أن الكثيرين من المشرفين على المخطوطات من حملة المؤهلات المتوسطة أو الأميين أو الجامعيين غير المثقفين من أصحاب تخصصات لا علاقة لها بالمخطوطات أو بعلم التوثيق فى حين أننا نجد البلاد الأوربية والأمريكية تعنى بالمحافظة على تراثنا محافظة تامة وتفتخر بها ، وقد وضع المستشرقون فهارس مفيدة لكثير من مجموعات المخطوطات الموجودة فى بلادهم وهم يفيدون منها فى دراساتهم ولا نغالى إذا قلنا لو كان ما فى أوربا وأمريكا من تراثنا العربى موجوداً عندنا لضاع أو تلف أو سرق منذ زمن بعيد .

ولنا أن نقول ما الوسائل التى تمكننا من استعادة هذه المخطوطات من أوربا وأمريكا ؟! وهذا أمر محال بالطبع لأن هذه المخطوطات أضحت ملكاً للجامعات أو المكتبات العامة التى تحتفظ بها . وهى كما قلنا تحافظ عليها أشد محافظة وتراها مدعاة لفخرها ولا تفرط فى ورقة واحدة منها ، وليس الأوربيون والأمريكيون بملومين فى شراء هذه المخطوطات أو حيازتها بطرق شتى ، بل نحن الملومون فى التفريط فيها أو بيعها . على أنه يمكن الحصول على صور من هذه المخطوطات باتفاقيات خاصة تجرى بين الحكومات أو الجامعات أو المكتبات ، كما أن العلماء الباحثين يستطيعون الحصول على هذه الصور بصفتهم العلمية للإستفادة منها فى أبحاثهم وعلينا أن نجزل الحوافز لكل مبعوث يُصوّر لنا أى مخطوط ذى قيمة علمية .

ما الذى يصلح للنشر ؟

هل كل مخطوطاتنا الإسلامية العربية صالحة للنشر ؟ نحن نرى أنه لا يخلو مخطوط من فائدة ولكن من المخطوطات ما هو أقل شأنا ، ولابد أن يتعاون العلماء المختصون فى كل بلد على وضع قوائم (ببليوجرافية) تذكر المخطوطات الهامة والتى ينبغى نشرها ليختار المعنيون بالنشر منها ما يختارون وأذكر أننى قرأت دراسة مفصلة لهذا القول فى دراسة أعتقد أنها متفردة للدكتور صلاح الدين المنجد المدير السابق لمعهد المخطوطات فى جامعة الدول العربية بعنوان : « ماذا ننشر من المخطوطات وكيف تنشر » ؟ وأمام هذه الثروة ألا يدْعونا الأمر بصورة جدية إلى إنشاء معهد علمى على أعلى مستوى لتدريس كل ما يتعلق بالمخطوطات من دراسة للخطوط وقواعد النحو والإملاء وقواعد الفهرسة وتحقيق النصوص . ففى فرنسا قرأت عن معهد خاص للمخطوطات وعلم الوثائق ومن الممكن أيضاً أن ينشأ معهد على غراره وهنا يمكن لنا أن نحمل الجامعات فى البلاد العربية والإسلامية وبالذات كليات اللغة العربية وأقسام المكتبات والوثائق المسئولية الكبرى . فلماذا لا تعمل جاهدة على أن يتخرج فيها باحث المخطوطات فتعطى دروس لطلابها فى الخطوط والمخطوطات وأن تعرفهم بأماكنها وقواعد فهرستها وحفظها ومدراستها وتحقيق نصوصها على أن يشرف عليها أساتذة لهم الدراية الخاصة فى هذا المجال



رحم الله معهد المخطوطات العربية !!

لقد كان إنشاء معهد المخطوطات فى الأربعينيات من هذا القرن حدثا ثقافياً جليلاً فى تاريخنا الحديث . فلا شك أن محاولة جادة لجمع نوادر المخطوطات من العالم ووضعها تحت تصرف الباحثين كان عظيما وهاما وقد حقق المعهد أعمالاً جليلة ، وأصبح له مكانة دولية ، ولكن للأسف الشديد قاتل الله السياسة فقد تعثر الآن فى أعماله ، وأصبح يديره نفر من الموظفين غير المختصين بالمخطوطات وإسناد الأمر إلى غير أهله آفة نراها فى كثير من بلادنا العربية ، وقد قيل « إذا وسد الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة » .

ونرى أنه مع التطور الثقافى والمادى فى بلادنا العربية اليوم أصبح من الممكن أن يقوم كل بلد عربى بانشاء « معهد للمخطوطات » أو « مركز وطنى للبحث » خاص به تجمع فيه جميع المخطوطات التى تتعلق بتاريخ البلد أو أدبه وعلمائه وماضيه سواء كانت مخطوطات أو مصوّرات من مخطوطات العالم ليسهل على الباحثين فى كل بلد الرجوع إلى المصادر التى يحتاجون إليها بسهولة ويسر .

الظاهرة الملموسة أن قضية تحقيق التراث [المخطوطات] تحوطها بعض المشاكل الخطيرة كالازدواجية فى التحقيق ، والفوضى فى طرق التحقيق ان الفوضى المستشريه هذه ترجع إلى عدة أمور :

١ ــ جهل بعض المحققين بالقواعد المقررة للنشر .

٢ ــ اختلاف بعض المحققين فى فهم معنى « التحقيق » فالمعنى العلمى لهذه الكلمة كما هو مراد عند علمائنا وعلماء الغرب هو إخراج النص المحقق ونشره صحيحا كما وضعه مؤلفه والتعليق عليه بإيجاز ليكون واضحاً ، لكن بعض الناشرين إظهاراً لعلمهم يكثرون من الشروح والحواشى على النص حتى تصبح أكثر من النصوص المراد تحقيقها ويتحول التحقيق إلى شرح . ثم إن النصوص التراثية قد يتصدى لها بعض المبتدئين فيتخبطون فى عشوائية ولا يستشيرون مَنْ هم أكثر منهم علماً ومعرفة وخبرة وذلك لغرورهم ـ وفى الجانب الآخر لابد من توحيد طرق التحقيق واتباع طرق ثابتة يقننها أهل الخبرة والمعرفة أن هناك كتابين فقط ــ حسب علمى ـ فى مجال قواعد تحقيق التراث الأول لأستاذنا عبد السلام هارون والثانى للدكتور صلاح الدين منجد وهذا الكتاب الثانى نقل للإنجليزية والفرنسية والإيطالية والاسبانية والتركية والفارسية وقد اطلعت على بعض بحوث فى تحقيق التراث لا تصل إلى مستوى العملين السابقين .

وعلى كل حال فنحن نعتقد ان هذه الفوضى ستزول بالتدريج ، وخاصة إذا درسنا قواعد التحقيق فى المعاهد والجامعات ـ أما الازدواجية فى النشر أى أن ينشر الكتاب مرتين عالمان من بلدين مختلفين فلا نرى فيه بأساً ولا يستدعى ضجة قد تثار . ان إحدى الطبعتين قد تكون أحسن من الأخرى تحقيقاً وفى هذا فائدة واستكمال وسبب هذه الازدواجية عدم المعرفة بحسن نية ، فالعالم فى المغرب أو تونس لا يدرى ماذا يحقق العالم فى مصر أو العراق ويمكن حل هذا الإشكال مبدئيا بأن تخصص المجلات الثقافية الدورية باباً ثابتاً تتابع فيه « أخبار التراث » بين أبوابها ليعلم كل من يعمل فى هذا الميدان بما يحققه الآخرون المحقق الذى فى يده عمل أصدره زميله الباحث فى مكان آخر ، أو يتراسل المحققان فينزل أحدهما للآخر عن الكتاب ، ويحكى لنا المحقق الجليل عبد السلام هارون أن الدكتور المنجد قد نزل مرة عن كتاب « الديارات » للشابشتى بعد أن حققه د. المنجد لصديقه العلامة كوركيس عواد العراقى ، فنشره باسمه . فالتراث العربى واسع ، يكفى لمئات من المحققين فى مئات من السنين ●